■ الباب السابع عشر

مكـــــة

الحج إلى مكة فرض على كل مسلم يقوم به مرة في العمر على الأقل لمن استطاع .

يقول القرآن المعظم :﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

في أكثر من كلية أو جامعة كان يأتي إليّ بعد المحاضرة التي أقدمها حوالي عشرة شبان أو أكثر بيض السحنة عامة ويقدمون إليّ أنفسهم على أنهم مسلمون عرب أو شرق أوسطيون أو من شمال أفريقيا يدرسون أو يعملون أو في زيارة للولايات المتحدة . كانوا يقولون لي إنه بالرغم من إدانتي العامة للبيض فهم يشعرون أنني مخلص في نظرتي إلى إسلامي وأنني لو فقط أتيحت لي الفرصة لمعرفة الإسلام الحقيقي فسأفهمه وأحتضنه . كتابع لمستر محمد كنت آلياً أعرض عن مثل ذلك الكلام .

ولكنني بعد عدد من تلك اللقاءات سألت نفسي مرة : إذا كان الإنسان مخلصاً في قبوله لديانة ما ، لماذا يحجم عن توسيع معرفته بتلك الديانة ؟ فاتحت والاس محمد ، ابن مستر محمد ، في ذلك الموضوع ذات مرة عندما كنا نتبادل الحديث فأجابني نعم وبكل تأكيد على المسلم أن يسعى ليتعلم كل شيء عن الإسلام . لقد كنت دائماً أجل رأي والاس محمد .

❖❖❖

obeikan.com

أكثر من واحد من المسلمين الأصيلين الذين قابلتهم حثني على مقابلة شخص يدعى محمود يوسف شواربي والحديث معه . وصفوه لي بأنه عالم مسلم مرموق خريج جامعة القاهرة ويحمل الدكتوراه من جامعة لندن ، محاضر إسلامي وخبير بالأمم المتحدة ومؤلف لعدة كتب . كان يحتل كرسي الأستاذية في جامعة القاهرة وقد حضر منتدباً إلى نيويورك ليعمل كمدير لاتحاد الجماعات الإسلامية في كندا والولايات المتحدة . أكثر من مرة حينما أكون قريباً من المنطقة قاومت الرغبة في زيارة مبنى اتحاد الجماعات الإسلامية المبنى من الحجر الأسمر وعنوانه واحد شارع ريفرسايد إلى أن قدمنا صحفي إلى بعض ذات يوم ، أنا ودكتور شواربي عندما صدف وتقابلنا في إحدى المناسبات . كان مهذباً وقال لي أنه يتابع أخباري في الصحف فقلت له أنهم كلموني عنه وتحادثنا معاً لمدة خمس عشر أو عشرين دقيقة. اضطر كلانا لأن يغادر بسبب ارتباطات أخرى حينما ألقى عليَّ جملة لن أنساها أبداً : « لن يؤمن الرجل حقاً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

ثم هنالك أختي إللا نفسها التي لا أنسى ما فعلته . قلت قبلاً إنها امرأة سوداء ضخمة قوية الإرادة من مواليد ولاية جورجيا . أخرجتها طريقتها وشخصيتها الطاغية من مسجد أمة الإسلام رقم أحدى عشرة في بوسطن ثم قبلوها مرة أخرى ثم خرجت من تلقاء نفسها . بدأت إللا تدرس الإسلام الأصيل مع جماعة من مسلمي بوسطن الأصيلين ثم أنشأت مدرسة لتعليم اللغة العربية . لم تكن تتحدثها فاستأجرت مدرسين خصيصاً لذلك . تلك هي إللا ! كانت تتاجر في العقار وتدخر لتأدية فريضة الحج . جلسنا نتجاذب أطراف الحديث في غرفة جلوسها طوال الليل وكلمتني أن ذهابي للحج مهم جدًّا وليس موضوع نقاش . كنت أفكر فيها طوال الطريق وأنا عائد إلى نيويورك . يا لها من امرأة قوية كسرت شوكة ثلاثة أزواج إذ أن لها إرادة ومثابرة تفوق ما لثلاثتهم مجتمعين. لقد لعبت دوراً مهماً جداً في حياتي وليست هنالك امرأة أخرى سواها لها من قوة العزيمة ما مكنها من توجيهي فقد كنت أنا دائماً الموجه للنساء ، أدخلتها الإسلام وها هي الآن تمول حجي إلى مكة .

دائمًا يعطينا الله الإشارة أنه معنا حينما نكون معه .

عندما تقدمت إلى القنصلية السعودية طالباً تأشيرة دخول إلى مكة أخبرني السفير السعودي أن أي مسلم حديث يطلب تأشيرة حج عليه أن يقابل د. محمود شواربي للحصول على موافقته أولاً قبل أن يمنح التأشيرة . إلا أن تلك كانت أول إشارة لي من الله . وعندما اتصلت هاتفيًّا بدكتور شواربي اندهش وقال لي : « لقد كنت على وشك الاتصال بك . تفضل عندي ولا تتردد ».

عندما وصلت إلى مكتبه ناولني خطاب تصديقه على ذهابي للحج في مكة ثم

أعطاني كتاباً بالإنجليزية اسمه رسالة محمد الخالدة لمؤلفه عبد الرحمن عزام . أخبرني دكتور شواربي أن المؤلف أرسل تلك النسخة لتُهدى إليَّ وأوضح لي أن المؤلف مواطن سعودي من أصل مصري ، رجل دولة عالمي ومن أقرب المستشارين للملك فيصل حاكم المملكة العربية السعودية . أضاف دكتور شواربي : « لقد تابع المؤلف نشاطك عن قرب في الصحف .» لم أكد أصدق ذلك .

أعطاني دكتور شواربي رقم هاتف ابنه الطالب في القاهرة ، محمد شواربي ، كما أعطاني رقم هاتف ابن المؤلف ، عمر عزام الذي يعيش في جدة ثم أضاف «آخر محطة لك قبل مكة . اتصل بهما ولا تتردد ».

تركت نيويورك في هدوء (من غير أن أعلم أنني سأعود في ضجة) لم نخبر إلا القليلين بأنني سأسافر لأنني لم أكن أرد لوزارة الخارجية الأمريكية أو أي أحد آخر أن يعترض طريقي في آخر لحظة . لم يذهب معي إلى مطار كندي الدولي سوى بتي وبناتي الثلاث وبعض المقربين . وبعد أن حلقت طائرة اللوفتهانزا في السماء تعارفنا أنا وجيراني الاثنان في صف مقاعد الطائرة وتلك كانت إشارة أخرى من الله إذ اتضح أن كليهما مسلم ، أحدهم في طريقه إلى القاهرة والثاني مسافر إلى جدة حيث سأبقي بضعة أيام. طوال الطريق إلى فرانكفورت بألمانيا ظللنا أنا وجاري نتحادث أو أقرأ أنا في الكتاب الذي أهدي إليَّ وعندما وصلنا فرانكفورت ودعنا بحرارة الأخ الذاهب إلى جدة أنا وزميلي قاصدًا القاهرة . كانت أمامنا بضع ساعات في فرانكفورت قبل أن نأخذ طائرة أخرى إلى القاهرة فقررنا أن نتجول ونتفرج على فرانكفورت .

وفي غرفة الرجال في المطار قابلت أول أمريكي يتعرف عليَّ في الخارج ، طالب أبيض من ولاية رود آيلاند . كان يحملق فيَّ ثم اقترب قائلاً : « هل أنت مستر إكس ؟ » ضحكت وأجبت بنعم إذ أني لم أسمع اسمي يقال بتلك الطريقة من قبل . هتف قائلاً: « مستحيل ، لا يمكن أن تكون هو ولن يصدقني أحد عندما أخبرهم بذلك » كان طالباً يدرس في فرنسا كما قال .

أدهشتني حفاوة وكرم الناس في فرانكفورت كما أدهشت المسلم الأخ الذي كان معي . دخلنا عدداً من المتاجر والمحلات بغرض التفرج أكثر من الشراء . في كل متجر دخلناه قابلونا بالتحية ، أناس لم نرهم إطلاقاً من قبل ويعلمون تماماً أننا غرباء . في أمريكا قد تدخل متجراً وتتفق مئات الدولارات وتغادره غريباً مثلما دخلت وكلاكما ، أنت والبائع ، تنظران إلى بعض وكأنما أسدى كل منكما جميلاً للآخر . الأوروبيون يتعاملون كبشر وبإنسانية أكثر من الأمريكيين . رفيقي المسلم كان يعرف من اللغة الألمانية ما يكفي لتسيير أموره فكان يقول لهم إننا مسلمون وعندها أمر بنفس التجربة التي مررت بها قبلاً في أمريكا عندما ينظر إليك الناس كمسلم وليس كزنجي في

أمريكا نفسها . عندما ينظر الناس إليك كمسلم يعاملونك كإنسان ، تتغير نظرتهم وطريقة كلامهم معك وكل شيء نحوك . في أحد متاجر فرانكفورت الصغيرة مال صاحب المتجر فوق الطاولة نحونا وأشار بيديه نحو بعض الألمان في الشارع قائلاً : « يوم تحت ، ويوم فوق.» أوضح لي المسلم الأخ بأنه يقصد أن الألمان سينهضون مرة ثانية .

عدنا إلى مطار فرانكفورت وركبنا طائرة الخطوط الجوية العربية المتحدة المسافرة إلى القاهرة . كان هنالك حشد كبير من الناس واضح أنهم مسلمون ومن كل مكان في طريقهم إلى الحج يحتضنون ويعانقون بعضهم البعض . كانوا من كل الألوان وكل المكان يفيض حرارة وودا وعطفاً . انتابني شعور لأول مرة أن هذا المكان يخلو من مشاكل اللون وأثر ذلك عليَّ وكأني خرجت لتوي من السجن .

أخبرت رفيقي الصديق المسلم بأنني أود أن أقضي يومين سائحاً في القاهرة قبل أن أواصل السفر إلى جدة فأعطاني رقم هاتفه وطلب مني الاتصال به إذ أنه ينوي أن يضمني إلى جماعة من أصدقائه الذين يتحدثون الإنجليزية وينوون الحج ويسرهم أن يعاونوني .

قضيت يومين سعيدين أتفرج على القاهرة . أعجبتني في القاهرة المدارس الحديثة والطرق السريعة المعبدة ومشاريع الإسكان الشعبي والتصنيع الذي شاهدته وقد كنت قرأت أن حكومة عبد الناصر بنت بلداً من أكثر بلدان أفريقيا تقدماً وصناعة . أكثر ما أدهشني في القاهرة هو أنهم كانوا يصنعون فيها السيارات والحافلات . كذلك كانت لي زيارة لطيفة مع ابن دكتور شواربي ، محمود شواربي ، شاب في التاسعة عشرة من عمره يدرس الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة . أخبرني أن حلم والده هو أن يبني جامعة للإسلام في الولايات المتحدة .

أما المجموعة الودودة التي سأحج معها فقد ذهلوا عندما علموا بأني مسلم من أمريكا . كان بينهم عالم مصري وزوجته ، وهما أيضاً في طريقهم للحج ، فأصر على أن أتناول طعام العشاء معهما في مطعم في هليوبولس من ضواحي القاهرة . كانا على درجة عالية من الذكاء والثقافة . التصنيع المتسارع في مصر كان من الأسباب التي أكسبتها عداوة الغرب الذي كان يخشى من أن تصبح مصر مثالاً تحتذي به بقية الدول الأفريقية . سألتني زوجته : « لماذا يموت الناس جوعاً في العالم بينما أمريكا تفيض بالغذاء ؟ ماذا يفعلون به – أيرمونه في البحر ؟ » أجبت : « نعم ، ولكنهم يضعون جزءً من الفائض في سفن أو صوامع غلال وثلاجات مبردة ويتركون تلك الأغذية هنالك يقوم على إدارتها جيش صغير من الموظفين حتى تصبح غير قابلة للأكل ثم يحضر جيش آخر من العاملين ليتخلص منها ويفسح مكانا لشحنة جديدة .» نظرت إليَّ غير مصدقة وكأنني أمزح ، لكن دافع الضرائب الأمريكي يعرف أنها الحقيقة . لم استمر في الموضوع لأقول لها : إن هنالك جياعاً في الولايات المتحدة نفسها .

اتصلت بصديقي المسلم كما طلب فأعلمني أن المجموعة الذاهبة للحج في انتظاري وبذلك أصبحنا ثمانية أشخاص ومن بينهم قاض ومسئول كبير في وزارة التربية . وجدتهم يتحدثون الإنجليزية بطلاقة وقبلوني كواحد منهم ، فاعتبرت تلك إشارة أخرى من الله أنني حيثما اتجهت سأجد من يعتني بي ويدلني على الطريق .

المعنى الحرفي للحج هو الخروج بقصد وجهة محددة معينة وفي الإسلام تعني الخروج قاصداً الكعبة والبيت المقدس لأداء فروض الحج . وفي مطار القاهرة كانت جموع تحرم وتدخل في حالة الإحرام وهي حالة من الطهر النفسي والجسدي . وعملاً بنصيحة البعض تركت كل أغراضي في القاهرة بما فيها أربع آلات تصوير إحداهن كاميرا سينمائية واشتريت حقيبة صغيرة تتسع لبذلة واحدة ، قميص ، وجوز ملابس داخلية وجوز من الأحذية ، وإلى الجزيرة العربية . في الطريق إلى المطار مع رفقاء الحج بدأت أشعر بالتوتر لعلمي أنني منذ تلك اللحظة فصاعداً سأراقب الآخرين الذين يعرفون ما يفعلون وأحاول تقليدهم .

عند وجوب الإحرام خلعنا ملابسنا ووضعنا منشفين أبيضين أحدهما الإزار الذي يلف حول الخاصرة والآخر يسمى الرداء يوضع حول الرقبة والأكتاف بحيث يكون الكتف والذراع الأيمن عاريين . كذلك لبسنا صندلاً بسيطاً ، النعل ، يترك عظام الرسغ عارية . فوق الإزار الذي يلتف حول الخصر وضعنا حزاماً جلدياً به محفظة للنقود مع حقيبة يد كبيرة بحزام طويل لحفظ جواز السفر والأوراق المهمة الأخرى مثل الخطاب الذي أعطانيه دكتور شواربي .

كان كل من يقصد الحج من بين آلاف الأشخاص في المطار يرتدي نفس الزي . قد تكون ملكاً أو فلاحاً ولا يعرفك أحد وبعض الشخصيات المهمة التي أشاروا لي عليها كانت ترتدي نفس الزي الذي كنت أرتديه . وبمجرد أن ارتدينا ذلك بدأنا ننادي بين الفينة والأخرى « لبيك ! لبيك ! » وأصبح المطار يضج بأصوات المحرمين يعلنون نيتهم تأدية فريضة الحج .

كانت الطائرات تغادر كل بضع دقائق وهي ملأى بالحجاج والمطار يعج بالمزيد منهم وبأقرانهم وأصدقائهم الذين حضروا لوداعهم . من لم يكونوا في طريقهم إلى الحج كانوا يسألون الحجاج أن يدعوا لهم بالخير في مكة . ركبنا الطائرة عندما علمت لأول مرة أنه مع الازدحام لم يكن قد بقي لي مكان عندما سعى بعضهم ووجد لي مقعداً في الطائرة وأنهم اضطروا أن يبحثوا عن شخص يتنازل لي عن مقعده لأنهم لم يشاءوا أن يخيبوا ظن مسلم أمريكي . شعرت بمزيج من الأسف وكثير من التواضع والامتنان – الأسف على أنني أخذت مكان شخص آخر ووضعته في حرج والامتنان والتواضع لمنحي هذا الشرف والتقدير .

الطائرة كانت مزدحمة بالبيض والسود والسمر والحمر والصفر . عيون زرقاء وشعور شقراء مع شعري الأحمر المجعد وكلنا سوياً أخوان . كلنا نعبد نفس الإله ، الله ، وكلنا نوقر ونحترم البعض . انتشرت الكلمة من بعض جماعتي وسارت من مقعد لمقعد أنني مسلم من أمريكا . اتجهت ناحيتي وجوه مبتسمة تحييني من على بعد . مرروا علينا طعاما في صندوق فأكلنا ووصل خبر المسلم من أمريكا إلى غرفة قيادة الطائرة . ترك قبطان الطائرة مكانه وحضر ليراني . كان مصريًا لونه أغمق من لوني ويمكنه أن يسير في شوارع هارلم من غير أن يُظن أنه غريب . سره كثيراً لقاء مسلم أمريكي وعندما دعاني للتفرج على غرفة القيادة قبلت فوراً وبدون تردد .

لون بشرة مساعد القبطان كان داكناً أيضاً وأكثر سمرة من القبطان . ولا أستطيع أن أصف لك الشعور الذي غمرني حينها فأنا لم أر قبل ذلك شخصاً ملوناً يقود طائرة نفاثة . تلك الآلة العجيبة والعدادات التي أمام القبطان والتي لا يستطيع شخص معرفة ما يعنيه كل عداد منها . كلا الطيارين كانا يبتسمان لي ويعاملانني بنفس الاحترام والتقدير اللذين صرت أتلقاهما منذ أن غادرت من أمريكا . وقفت أنظر من خلال الزجاج الذي أمامنا . في أمريكا ركبت الطائرة مئات المرات وربما أكثر من أي زنجي آخر ولم يحدث أن دعاني قبطان طائرة لأدخل غرفة القيادة وها أنا الآن مع مسلمين اثنين من نفس صف المقاعد أحدهما من مصر والثاني من الجزيرة العربية وجميعنا في طريقنا إلى مكة ونحن في غرفة القيادة . لقد أدركت أن الله معي .

عدت إلى مقعدي ولمدة ساعة كنا نحن جميع الحجاج ننادي « لبيك ! لبيك !» بين الفينة والأخرى . رست الطائرة في مطار جدة وهي ميناء بحري على البحر الأحمر ونقطة القدوم والمغادرة لكل الحجاج الذين يحضرون إلى السعودية قاصدين مكة التي تبعد أربعين ميلاً إلى الداخل شرقاً .

مطار جدة بدأ أكثر ازدحاماً من مطار القاهرة وأصبحت مجموعتنا مجرد واحدة من الحشود المزاحمة من كل جنس ولون على الأرض وكل مجموعة تشق طريقها في صف طويل إلى مكتب الجمرك وقبل الوصول إلى الجمارك عُين لكل مجموعة مطوف مهمته أن يقود المجموعة من جدة إلى مكة . بعض الحجاج كانوا ينادون « لبيك! » وآخرون في جماعات كبيرة كانوا ينشدون معاً دعاءً يقول : « لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك . » وجوهر هذا الدعاء وحدانية الله .

الكل ما عدا المسؤولين والموظفين كان يتزيّا برداء الإحرام أو غطاء الرأس الأبيض والجلابيب الطويلة وشباشب المطوفين الذين يقودون مجموعات الحجاج مع مساعديهم . وجود حرف الميم قبل الفعل يحول الفعل إلى اسم في اللغة العربية فكلمة مطوف تعني

الذي يقود الحجاج عند الطواف والذي هو الدوران حول الكعبة في مكة .

شعرت بالتوتر وأنا أزاحم وسط مجموعتي في الصف ونحن نشق طريقنا نحو مكتب الجوازات . شعرت بشيء من القلق وأنا أفكر في الذي أحمله لهم . أنني هنا في قلب العالم الإسلامي عند المنبع وكل ما أحمله هو جواز سفر أمريكي والذي هو على نقيض من كل ما يدعو له الإسلام . شعر القاضي في مجموعتنا بالتوتر الذي كنت أعاني منه فربت على ظهري . كان الحب والتواضع والتآخي الحقيقي أشياء تكاد تحسها في الجو حيثما التفت . أخيراً وصلت مجموعتنا مكان ضباط الجوازات فكانوا يفحصون كل جواز وحقيبة ثم يومئون لكل حاج أن يتقدم . شعرت بعصبية حينما رفض مفتاح الحقيبة أن يعمل فكسرت القفل خوفاً من أن يظن أنني أحمل ممنوعات بحقيبتي وعندما مددت جوازي لضابط الجوازات ورأى أنني أحمل جوازاً أمريكياً نظر إليه وقال شيئاً باللغة العربية ثم بدأ رفقائي من حولي يقولون كلاماً بالعربية بسرعة ويومئون ويشيرون محاولين التدخل لصالحي . سألني زميلي القاضي بالإنجليزية عن خطاب دكتور شواربي ثم أخذه ووضعه أمام الضابط الذي قرأه ثم رده لي غير مقتنع فيما يبدو . ثار جدل حولي بينما أنا أشعر بالغباء ولا أفهم كلمة أو أعرف ما كان يدور . وأخيراً التفت القاضي نحوي حزيناً وأفهمني أن عليَّ أن أذهب للمحكمة الشرعية وهي بمثابة المحكمة الإسلامية العليا التي تدرس كل حالات المسلمين الذين دخلوا الإسلام حديثاً ويحاولون دخول مكة فدخول مكة محرم قطعيًّا على غير المسلمين .

سيضطر رفقائي إلى الذهاب لمكة بدوني وقد صدمهم ذلك من القلق عليَّ فيما يبدو فخرجت الكلمات من فمي « لا تنزعجوا فسأكون بخير والله يسدد خطاي » أخبروني أنهم سيدعون الله لي وبدأ المطوف يحثهم على التحرك بعيداً عن زحمة المطار المزدحم حتى يفي بمواعيده . لوحنا لبعضنا البعض وراقبتهم وهم يبتعدون .

كانت الساعة وقتها حوالي الثالثة من صباح الجمعة . لم أر في حياتي مثل تلك الحشود ومع ذلك لم أشعر بالوحدة والعجز في حياتي مثلما شعرت تلك المرة . كان اليوم جمعة كما قلت مما زاد من سوء موقفي حيث أن الجمعة عند المسلمين تعادل تقريباً يوم الأحد عند المسيحيين . يجتمع المسلمون في يوم الجمعة الذي يعني حرفياً « يوم التجمع » ولا تعقد محاكم في ذلك اليوم . عليَّ أن أنتظر حتى يوم السبت على الأقل .

أشار أحد المسئولين إلى أحد مساعدي المطوف الصغار ثم أوضح بلغة إنجليزية مكسرة أنهم سيأخذوني إلى مكان في المطار وسيحتفظون بجواز سفري عندهم . أردت أن أعترض لأن أهم القواعد في السفر هي ألا يفترق المسافر عن جواز سفره لكنني لم أعترض . مشيت وأنا ملتف بمناشفي ونعلي في قدمي خلف المطوف بغطاء رأسه الأبيض وجلبابه الأبيض الطويل وخفيه ولابد أن منظرنا كان غريباً . الناس

من حولي يتكلمون بجميع اللغات وأنا لا أفهم أي منها .

خارج المطار مباشرة يوجد جامع ومبنى ضخم من أربعة طوابق يشبه داخليات الطلبة. كان الوقت قبل الفجر والجو شبه مظلم والطائرات تهبط وتقوم بانتظام وأنوارها الكاشفة تغمر الممرات وأنوار الأجنحة والذيل تومض . جماعات حجيج من غانا ، من أندونيسيا واليابان ، من روسيا ... إلخ تتحرك داخلة وخارجة من المبنى الضخم الذي أنا في الطريق إليه . وصلنا المبنى ودخلنا وبدأنا في الصعود للطابق الرابع مارين بأناس من كل جنس ولون على الأرض . صينيون ، أندونيسون ، أفغان . بعضهم لم يخلع زيه القومي بعد ليرتدي ملابس الإحرام – كان المنظر مثل صفحات من **المجلة الجغرافية الوطنية** .

أشار دليلي عندما وصلنا الطابق الرابع نحو غرفة بها نحو الخمسة عشرة شخصاً يرقد كثيرون منهم وأجسادهم مطوية من فوق حصائرهم نائمين . كان واضحاً لي أن بعضهن نساء إذ كن محجبات من الرأس إلى القدم وهناك مسلم روسي وزوجته يقظين حملقا فيَّ . كذلك رفع مسلمان مصريان وآخر فارسي رؤوسهم وحملقوا فينا بينما الدليل يقودني إلى ركن . أومأ لي الدليل مشيراً إلى أنه سيريني الوضع الصحيح للصلاة وكيفية تأديتها . تخيل ، مسلم منستر وقيادي في جماعة إلايْجا محمد الإسلامية لا يعرف كيفية تأدية الصلاة !

حاولت تقليده ولكني كنت أحس بعجزي عن تأديتها بطريقة صحيحة وأشعر بعيون الآخرين تتابعني . ليس بإمكان الرسغين الغربيين أن يؤديا ما أدته رسغا المسلمين طوال حياتهم . الآسيويون يجلسون القرفصاء لكن الغربيين يجلسون معتدلي القامة في المقاعد . حاولت أن أنحني ثم أركع ثم أطوي رجلي وأجلس أثناء تأدية الصلاة ، لكن جسمي لم يطاوعني وانتصب واقفاً . بعد ساعة من ذلك غادر دليلي المكان وأومأ لي أنه سيعود بعد ساعة .

لم أفكر حتى في النوم وظللت أتمرن على قيام وقعود الصلاة بينما المسلمون الآخرون يراقبونني ولم أدع منظري الغريب في عيونهم يمنعني من التمرن وبعد مدة تعلمت حيلة يمكنني بها أن أنحني وأركع وأسجد وأقعد وبعد ثلاثة أيام من ذلك تورمت رسغاي .

عند الفجر بدأ المسلمون النائمون في الاستيقاظ وشعروا بوجودي بمجرد قيامهم من النوم وصار كل منا يعاين الآخر بينما يقضي الكل أموره . بدأت أعي الدور الذي تؤديه حصيرة الصلاة في حياة المسلمين . لكل فرد حصيرة صغيرة للصلاة وكل عائلة أو مجموعة عندها سجادة جماعية كبيرة . يصلي المسلمون على الحصيرة ثم ينشرون عليها فوطة أو غطاء فتتحول إلى غرفة طعام ثم بعد ذلك

يرفعون منها الأواني والفوطة أو الغطاء ويجلسون عليها وبذلك تتحول إلى غرفة جلوس . ثم بعد ذلك يلقون بأجسادهم عليها متكرفسين فتصبح غرفة نوم . في ذلك المكان خطرت لي فجأة المبالغ الكبيرة التي دفعها لنا مندوب تاجر البضائع المسروقة مقابل قطع السجاد الذي سرقناه له في بوسطن . لقد كانت غالية الثمن بسبب العناية الفائقة التي تنسج بها خيوطها في بلدان للسجادة فيها معنى حضاريًّا متنوعاً . بعد ذلك وفي مكة رأيت معنى آخر للسجادة أو الحصيرة . إذا حدث نزاع كان يؤتى بسجادة ويجلس عليها شخص حكيم محترم ليس طرفاً في النزاع ويجلس الطرفان المتنازعان من حوله وبذلك تتحول السجادة إلى محكمة .

أحد المسلمين المصريين في القاعة كان يراقبني بطرف عينه . ابتسمت له فقام من مكانه نحوي وحياني بكلمة « هالو.» كان وقعها أكبر من خطبة فانشرحت ورددت التحية « هالو.» سألته عن اسمه بترديد كلمة اسم (نيم) بالإنجليزية ورغم أنه حاول فهمي لكنه لم يستطع ، حاولنا تجربة بعض الكلمات مع بعض ويبدو أن قاموسه لم يكن يحتوي على أكثر من عشرين كلمة إنجليزية مما زاد في إحباطي . كنت مثلاً أشير إلى السماء وأقول كلمة « سكاي » بالإنجليزية فكان يبتسم . كنت أردد مرة أخرى « سكاي » وأشير إليه أن يردد خلفي فيفعل . « ايروبلين (طائرة) ... رج (سجادة) ... فوت (قدم) ... صندل ... آيز (عيون) ... » وكلمات من ذلك النوع . فجأة حدث شيء غريب سررت به لأنني تمكنت من التفاهم مع شخص آخر . كنت أردد أي كلمة تقفز إلى ذهني وفجأة قلت « محمد علي كلاي» وعندها أشرقت وجوه كل المستمعين بالابتسام . أشار صديقي نحوي متسائلاً وهو يقول : « أنت ؟ أأنت محمد علي ؟» هززت رأسي نافياً : « لست محمد علي كلاي ولكنه صديقي – صديق ! » فهمني بعضهم نصف فهم والبعض الآخر لم يفهم إطلاقاً وذلك هو السبب في انتشار القصة في المبنى أنني أنا محمد علي كلاي بطل الملاكمة . بعد ذلك بفترة علمت أن كل رجل وامرأة وطفل في العالم الإسلامي سمع عن هزيمة ليستون (الذي ينظر إليه في البلدان المسلمة وكأنه غول من أكلة لحوم البشر) على طريقة داود وغولیات من كاسياس كلاي الذي أعلن للعالم بعد ذلك أن اسمه محمد علي ودينه الإسلام وأن الله حباه بالنصر .

حدوث تفاهم كان أحسن شيء يمكن أن يحدث لي في تلك القاعة ومعرفتهم بأني مسلم من أمريكا جعلتهم لا يكتفون بمراقبتي بل يحاولون مساعدتي ثم بدأ الآخرون في الابتسام لي والاقتراب مني وهم ينظرون إليَّ من فوق لتحت ويتفحصونني وكأنما أنا من المريخ لكن الود كان ظاهراً في سلوكهم .

بعد ذلك عاد مساعد المطوف وأومأ لي أن أذهب معه وأشار إلى الجامع من

الطابق الذي نحن فيه ففهمت أنه أتى ليأخذني لصلاة الصبح التي تحين قبل شروق الشمس دائماً . تبعته ومررنا في الطريق بآلاف الحجاج يتمتمون بكل لغة ما عدا الإنجليزية . غضبت من نفسي لأنني لم أحاول أن أجد الوقت لأتعلم طقوس الصلاة قبل مغادرة أمريكا . أما ونحن في جماعة إلايْجا محمد فلم نكن نصلي باللغة العربية وقد حدث عندما كنت في السجن قبل اثنتي عشرة سنة أن زارني مسلم أصيل من جماعة بوسطن ثم أرسل لي كتاباً للصلاة باللغة العربية . في ذلك الوقت تعلمت الصلوات من الناحية اللفظية فقط ولكني لم استخدمه منذ ذلك الوقت .

حزمت أمري أنني سأدع الدليل يقوم بكل شيء أولاً ثم أحاكيه ولم يكن ذلك صعباً لأن دليلي أراد أن يفعل ذلك على أية حال . خارج الجامع مباشرة كان يوجد صف من صنابير المياه أمام حوض فالوضوء يجب أن يسبق الصلاة وأنا أدرك ذلك . حتى بعد مراقبة مساعد المطوف لم أتمكن من إتقان طريقة الوضوء لأن هنالك طريقة معينة يتوضأ بها المسلم الأصيل والطريقة وتسلسلها مهمان جداً في هذا الأمر .

تبعته داخل المسجد وأنا على بعد خطوة من خلفه أراقبه ، وقف في خشوع ورأسه متجه نحو الأرض ففعلت مثله . « بسم الله الرحمن الرحيم » تبدأ بذلك كل صلوات المسلمين ، بعدها بدأت أردد من خلفه ولا أدري إن كنت على خطأ أو صواب فيما أردده . لست أرمي إلى أن يبدو الأمر وكأنني أهزل لأن الموضوع كان أبعد ما يكون عن ذلك وإذا ما راقبني أي شخص فلن يستطيع أن يحرز أنني كنت أقول شيئاً مختلفاً عما يقوله الآخرون .

بعد صلاة الصبح أخذني الدليل إلى مكان في الطابق الرابع وبلغة الإشارة أفهمني أنه سيعود بعد ثلاث ساعات ثم ذهب .

من طابقنا يمكن مشاهدة جميع أرجاء المطار فوقفت أتفرج من خلال الحاجز والطائرات تهبط وتحلق بانضباط وألوف مؤلفة من الناس في ملابس زاهية وألوان مختلفة تملأ المكان حركة . رأيت جماعات تتجه إلى مكة في حافلات وشاحنات وفي عربات كما أنني رأيت البعض وقد بدأ مشوار الأربعين ميل مشياً بالأرجل وتمنيت لو بدأت السير مشياً فذلك شيء أستطيع القيام به دون مرشد .

كنت قلقاً من مجرد التفكير فيما ستحمله لي الأيام التالية . هل سيرفض طلبي كحاج إلى مكة ومم سيتكون الاختبار ومتى سأواجه المحكمة ؟

تقدم مني المسلم الإيراني في حجرتنا إلى حيث أقف عند السور . حياني متردداً ، « أمر ... أمريكي ؟ » وأومأ لي أنه يريدني أن أتناول طعام الإفطار معه وزوجته على سجادتهما وكنت أدرك أن ذلك عرض كبير لأن المسلم لا يدعوك لتناول الطعام في حضرة زوجته بسهولة . لم أشأ أن أفرض نفسي عليهم ولا أدري أذا فهم ما أردت أن أقول

حينما هززت رأسي وابتسمت قاصداً أن أقول « لا ، شكراً» ولكنه على أية حال ذهب وأحضر لي شاياً وبعض الكعك ولم أكن قد فكرت في الأكل قبل ذلك .

الآخرون كانوا يشيرون لي من بعيد ثم يتقدمون نحوي ويومئون ويبتسمون . أما صديقي الذي كان يتحدث قليلاً من الإنجليزية فقد اختفى . وبدون أن أعلم كان ينتشر خبر وجود أمريكي مسلم في الطابق الرابع . بدأت الحركة تزداد والناس تمر بجناحنا . مسلمون في ملابس الإحرام أو في ملابسهم القومية يتمشون بالقرب منا ويبتسمون واستمر ذلك طيلة وجودي في ذلك المكان . وحتى ذلك الوقت لم أدرك أن وجودي هو السر في ذلك .

طوال حياتي كنت شخصاً نشطاً لا يهدأ وعندما لم يعد مساعد المطوف بعد ثلاث ساعات حسب وعده بدأت أشعر بالجوع وقد كنت رفضت ما قدمه لي كل مسلم في جناحنا من طعام . المشكلة كانت ، وأعترف بذلك ، هي أنني لم أكن متأكداً أنني سأستسيغ طعامهم وطريقة أكلهم حيث يوضع كل شيء في طبق كبير في منتصف السجادة ويهجم عليه كل أفراد المجموعة بأياديهم .

ظللت واقفاً عند السور الحديدي أراقب الساحة تحت ثم قررت أن أنزل وأستكشفها بنفسي . نزلت إلى الطابق الأرضي وقررت إلا أذهب بعيداً فقد يأتي شخص يبحث عني ولا يجدني فرجعت عائداً إلى جناحنا وبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة نزلت ثانياً وابتعدت قليلاً هذه المرة شاقاً طريقي ثم رأيت مطعماً صغيراً فتوجهت إليه رأساً ووجدته مزدحماً يضج باللغات المختلفة . باستعمال الإشارات تمكنت من شراء فرخة كاملة مشوية وما يشبه شرائح البطاطا المقلية . عدت إلى الساحة وجلست ومزقت تلك الفرخة بيدي وكل ممن حولي يفعل نفس الشيء . رأيت رجالاً عمرهم فوق السبعين يطوون أرجلهم من تحتهم حتى غدوا كتلة بشرية يأكلون بشهية ورضا وكأنهم في مطعم فاخر يحيط بهم النادلون من كل اتجاه . الكل يأكل كواحد وينام كواحد وكل ما في جو الحج يوحي بوحدة الإنسان تحت إله واحد .

قمت بعدة رحلات استكشافية من جناحنا فوق إلى الساحة تحت وفي كل مرة أغامر أكثر بالسير لمسافة أطول . في إحدى المرات هززت رأسي مشيراً إلى رجلين سوداوين يقفان قرب بعض وكدت أصرخ من الفرح حينما رد على أحدهم بالإنجليزية وبلكنة بريطانية . وقبل أن تحضر مجموعتهم متهيأة للسفر إلى مكة تمكنا من الحديث لبعض الوقت وعرفتهم بأني أمريكي فعرفوني بأنهم مسلمون . حزنت لاضطرارهم إلى الذهاب وقد عرفتهم لتوي . كانا من أثيوبيا ودرسا في القاهرة والآن يقيمان بالرياض ، العاصمة السياسية للمملكة العربية السعودية . في المستقبل عرفت أن أثيوبيا بلد يسكنها ثمانية عشر مليون نسمة عشرة مليون منهم

من المسلمين بينما يعتقد بعض الناس أن أثيوبيا بلد مسيحي . الغرب هو الذي دائما يضع المسيحيين في السلطة .

فرغت من صلاة المغرب واستلقيت على حصيرتي وأنا أشعر بالحزن والوحدة حينما شق الظلام فجأة نور خافت في جناحنا .

حقيقة كان النور من فكرة خطرت لي . في أحد جولاتي الاستكشافية في الساحة كنت لاحظت أربعة رجال يجلسون على طاولة بها هاتف فيما يبدو أنهم من المسئولين الرسميين . فكرت في الذهاب إليهم ومع الهاتف طرأت في ذهني فكرة الاتصال بالرقم الذي أعطانيه دكتور شواربي في نيويورك ، رقم هاتف عمر عزام ابن مؤلف الكتاب الذي يسكن هنا في جدة .

في دقائق نزلت إلى الساحة وجريت نحو مكان الرجال الأربعة وأريتهم الخطاب وكلي إثارة ومن حسن الحظ أن أحدهم كان يقرأ الإنجليزية . قرأ الخطاب ثم قرأه بصوت عال لأقرانه. «مسلم من أمريكا » شد ذلك انتباههم وفضولهم ويبدو أنهم ذهلوا . طلبت من الذي يتحدث اللغة الإنجليزية منهم أن يتكرم ويتصل بالدكتور عمر عزام في ذلك الرقم . قام بذلك بسرور وتكلم مع شخص ما باللغة العربية .

حضر دكتور عزام إلى المطار مباشرة وشد على يدي في ترحاب أمام دهشة الآخرين . كان رجلاً شاباً طويلاً ذا بنية قوية وطوله حوالي ستة أقدام . كان مهذباً جداً ولون بشرته يضعه في مصاف البيض في أمريكا وبالرغم من ذلك أذهلني في نفس اللحظة أن سلوكه لم يجعلني أفكر فيه كشخص أبيض . سألني « لِمَ لم تتصل من قبل ؟» ثم عرض بعض الأوراق الثبوتية على المسئولين الأربع واستخدم الهاتف أمامهم ليتحدث بالعربية مع بعض المسئولين في المطار بعد ذلك ناداني : « تعال ».

في أقل من نصف ساعة جعلهم يفرجون عني وأعيد لي جواز سفري وحقيبتي ثم ركبنا سيارة دكتور عزام متجهين إلى مدينة جدة وأنا في ملابس الإحرام . عجزت عن النطق أمام سلوك الرجل وبشعوري ألا فرق بيننا كبشر . ومع أني قد سمعت كثيراً عن كرم المسلمين لكنني لم أتخيل هذه الحرارة في الترحيب . سألته بعض الأسئلة عرفت منها أنه درس في سويسرا وأنه متخصص في تخطيط المدن وأنه مُعار للمملكة من الأمم المتحدة للإشراف على عمليات إعادة بناء الأماكن المقدسة في السعودية وأن أخته متزوجة من ابن الملك فيصل . ها أنا أركب العربة مع صهر ابن حاكم السعودية العربية ولم يكن ذلك كل فضل الله عليَّ « سيسر أبي بلقائك » قال ذلك دكتور عزام ، ابن الرجل الذي أرسل إلي نسخة من كتابه .

سألته عدة أسئلة عن أبيه عبد الرحمن عزام . كان يعرف بعزام باشا أي لورد عزام إلى أن قامت الثورة المصرية وألغى الرئيس ناصر كل ألقاب الباشاوات والنبلاء .

أخبرني دكتور عزام « سيكون أبي بالمنزل عند وصولنا . أنه يقضي كثيراً من الوقت في نيويورك وهو يتابع أخبارك في الصحف بشغف شديد ».

عجزت عن النطق .

كان الوقت فجراً عندما وصلنا منزل دكتور عزام وهناك كان ينتظرنا أبوه وعم له كيميائي وصديق آخر وقد استيقظوا مبكرين من أجل ذلك فيما يبدو . عانقني كل منهم بحرارة وكأنني ابن مفقود منذ زمن وعاد . لم أر هؤلاء الرجال من قبل في حياتي ومع ذلك يعاملونني هذه المعاملة الحسنة ! سأقول لكم أنني لم أحظ بمثل هذا الشرف في حياتي ولم أتلق مثل ذلك التكريم الحقيقي أبداً من قبل .

أحضر الخادم الشاي والقهوة ثم اختفى . حثني الجميع على تلقي بعض الراحة كما أنني لاحظت عدم وجود امرأة بين الحاضرين وفي السعودية قد يظن المرء أن ليست بها نساء .

لم يخطر ببالي ما كان يقوم به ذلك الرجل بل لم أحلم بمثله . كيف لي أن أعرف حينما أخبروني أنهم سيعيدونني للعشاء وأنني يجب أن أعود للسيارة ، كيف لي أن أعرف أنني في الطريق لمشاهدة قمة الكرم الإسلامي ؟

عبد الرحمن عزام يقيم في جناح في فندق جدة بالاس عندما يكون في جدة وبما أنني جئته بخطاب من صديق له فقد قرر أن ينزل في منزل ابنه ويترك جناحه لاستعمالي إلى أن أترك مكة . وعندما علمت بذلك لم تكن هنالك جدوى من الرفض لأنني وجدت نفسي في ذلك الجناح والكل قد ذهب بما فيهم دكتور عزام . كان جناحاً من ثلاث غرف وغرفة حمام بحجم غرفة كبيرة من غرف هيلتون نيويورك . رقم الجناح كان ٢١٤ وله شرفة تشرف على وتعطي منظراً جميلاً لمدينة جدة القديمة .

شعرت بعاطفة جياشة لم أشعر بمثلها من قبل تدفعني نحو الصلاة شكراً لله فصليت لله خاشعاً في سجاد غرفة الجلوس .

حياتي السابقة في الشوارع وحياتي كمسلم خالية من أية نزعة مثالية . وإذا ما أسدى إليَّ شخص معروفا ليس مضطراً لفعله ، كنت دائماً أدرس الأسباب والدوافع وراء ذلك وإذا كان الشخص أبيض كنت أرى دوافعه الأنانية من وراء فعله .

ولكنني وأنا في الفندق في ذلك الصباح وبعد أن حملتني محادثة تلفونية فقط من حصيرة في المبنى الضخم إلى مثل تلك الحال ، وجدت نفسي في رهبة فقدت معها المقاومة . هذا الرجل الأبيض – فهو أبيض بمقاييس أمريكا ، على صلة بحاكم السعودية العربية ومن مستشاريه المقربين – شخصية عالمية ومن غير أن يستفيد شيئاً .تنازل عن جناحه في الفندق من أجل راحتي العابرة عن طيب خاطر . أنه لن يكسب

أو يستفيد شيئاً من ذلك فهو ليس بحاجة لي ولديه كل ما يبغاه أي إنسان . في حقيقة الأمر أنه سيخسر أكثر مما يكسب . لقد تابع أخباري في الصحف وإذا كان حقاً فعل فهو يعرف ما أوصم به . المفترض أن لي قروناً وأنني « عنصري » و«معاد للبيض » وهو أبيض من كل ما يبدو . يفترض أنني مجرم وليس ذلك فحسب بل أنني متهم أنني استغل ديانة الإسلام كغطاء لممارساتي وفلسفتي الإجرامية . وحتى إذا كان عنده دافع لاستغلالي فهو يعلم أنني انفصلت عن جماعة إلايجا محمد الإسلامية أو « قاعدة نفوذي » كما تقول الصحف في أمريكا . المنظمة الوحيدة التي أنتمي إليها عمرها أسابيع وليست لي وظيفة أرتزق منها . ولا أملك أية نقود . أنني حتى أستدنت من أختي لأتمكن من الحضور إلى هنا .

ذلك الصباح كان أول مرة أعيد فيها تقييمي « للرجل الأبيض » بدأت ألاحظ أن الاستعمال العام لكلمة « الرجل الأبيض» يعني البشرة ثانوياً ولكنها أساساً تعني سلوكاً وموقفاً . في أمريكا كلمة الرجل الأبيض تعني سلوكاً وموقفاً معيناً من الرجل الأسود ومن كل البشر من غير البيض . أما هنا في العالم الإسلامي فلقد رأيت أناساً ذوي بشرة بيضاء وشعور أخوي مخلص لم أر على الإطلاق أكثر منه إخلاصاً من قبل .

ذلك الصباح كان بداية تغيير جذري في نظرتي العامة نحو الرجل « الأبيض » سأقرأ عليكم أيضاً ما كتبته في حجرتي بعد الظهر في الفندق ذلك اليوم : «شعوري ، وأنا أجلس هنا منتظراً الظهور أمام لجنة الحج ، لا يوصف . نافذة غرفتي تطل غرباً نحو البحر . الشوارع تعج بالحجاج القادمين من كل بقاع الأرض . الصلوات للّه وآيات من القرآن على كل لسان . لم أر مشهداً أجمل من ذلك بل لم أشاهد مثل ذلك المنظر ولم أشعر بمثل ذلك الجو قبل ذلك على الإطلاق . وبالرغم من قلقي فإنني أشعر بالأمن والطمأنينة وأنا على بعد آلاف الأميال من الحياة المختلفة تماماً التي أعرفها . تخيل ، قبل أربع وعشرين ساعة فقط كنت أستلقي على حصيرة في الطابق الرابع من ذلك المبنى ذي الأربعة طوابق يحيط بي أناس لا أستطيع التفاهم معهم ، وحيداً أشعر بالخوف والقلق نحو المستقبل وفجأة وبعد محادثة هاتفية واحدة طبقاً لتوجيهات دكتور شواربي ، قابلت رجلاً من أقوى الشخصيات نفوذاً في العالم الإسلامي وبعد قليل سأنام على سريره في فندق جدة بالاس . أدرك بأنني محاط بأصدقاء أكاد أحس بإخلاصهم وعمق تدينهم . عليَّ أن أصلي شكراً للّه على هذه النعمة وأصلي مرة أخرى طالباً من اللّه أن يحفظ ويبارك في زوجي وبناتي هناك في أمريكا على تضحياتهم أيضاً ».

صليت مرتين كما قلت في مفكرتي ثم استلقيت نائماً لمدة أربع ساعات عندما رن جرس الهاتف وإذا به دكتور عزام الصغير . بعد ساعة سيأتي ليأخذني ولنعود إلى منزله لتناول طعام العشاء . تلعثمت وأنا أحاول أن أعبر عن بعض الامتنان لما فعله

من أجلي . قاطعني قائلاً : « ما شاء الله » قاصداً أن تلك إرادة الله .

اغتنمت الفرصة لأنزل بسرعة إلى ردهة الفندق حتى أراها مرة أخرى قبل وصول دكتور عزام . عندما فتحت باب غرفتي رأيت شخصاً يخرج من الغرفة المقابلة يرتدي زيًّا رسمياً ويبدو أنه يقيم هنالك ، رأيته وهو يخرج نازلاً يحيط به عدد من المرافقين . تبعتهم نازلاً ثم مررنا بردهة الفندق . في الخارج كانت قافلة صغيرة من العربات في انتظارهم وما أن ظهر في مقدمة الفندق إلا وجرى نحوه خلق كثيرون أحاطوا به يقبلون يده . علمت من يكون الرجل : المفتي الأكبر لبيت المقدس . بعد ذلك بفترة سنحت لي فرصة الحديث معه قرابة نصف الساعة . كان رجلاً مبجلاً وذا خلق عظيم ملماً بالشئون العالمية وآخر الأخبار في أمريكا .

لن أنسى ما حييت أمسية العشاء الذي تناولناه في منزل آل عزام وسأقرأ لكم من مفكرتي : « لا أستطيع ذهنياً أن أصف أولئك الرجال بأنهم (بيض) ولِمَ ؟ فقد كان سلوكهم وكأنهم أخوة لي ودكتور عزام الكبير مع حديثه الأبوي العالم . شعرت وكأنه أبي . كان واضحاً من مظهره وحديثه أنه دبلوماسي غاية في الحنكة وذو أفق واسع . كان ملماً بأحوال العالم وعارفاً بما يجري فيه كما يعرف الرجل ما يجري داخل غرفة جلوسه .

« كلما تحدثنا أكثر كلما بدا لي أن معينه من العلم وغزارة معرفته ليس لهما حدود . حدثني عن سلالة النبي محمد وأراني كيف أن بها سوداً وبيضاً كما أشار إلى أن اللون ، لون البشرة وتعقيداته ومشاكله غير موجودة في العالم الإسلامي وأنها توجد فقط في المناطق التي بها نفوذ غربي وبدرجة ذلك النفوذ وأنه إذا صادف الإنسان في بلد فروقاً مبنية على اللون ، فليس ذلك إلا انعكاساً مباشراً لدرجة النفوذ الغربي ».

علمت أثناء العشاء أن لجنة الحج أبلغت بموضوعي عندما كنت في الفندق وأنني سأظهر أمامها في صباح اليوم التالي وذلك ما حدث .

القاضي كان رجلاً يدعى الشيخ محمد حركون وقاعة المحكمة خالية إلا مني ومن أخت هندية ، بروتستانية سابقة قبلت الإسلام وكانت مثلي تحاول تأدية فريضة الحج . كانت سمراء ذات وجه رقيق أغلبه محجوب . القاضي حركون كان رجلاً عطوفاً ذا هيبة . سألني بعض الأسئلة ليعرف مدى إخلاصي فأجبته بإخلاص على قدر ما استطعت . لم يعترف بي كمسلم فحسب بل أعطاني كتابين أحدهما باللغة الإنجليزية والآخر بالعربية . سجل إسمي في سجل المسلمين الأصيلين ثم ناداني وأنا في طريقي للمغادرة وقال لي : « أتعشم أن تصبح داعية كبيراً للإسلام في أمريكا » أجبته بأنني أشاطره ذلك الرجاء وأنني سأبذل غاية جهدي لأحقق ذلك .

غمر السرور آل عزام عندما علموا بتأهيلي وقبولي للذهاب إلى مكة . تناولت طعام الغداء في فندق جدة بالاس ثم استلقيت على السرير ونمت لعدة ساعات إلى أن أيقظني جرس الهاتف .

كان المتحدث محمد بن عبد العزيز مجيد نائب مدير المراسيم للملك فيصل فأخبرني : « ستنتظرك عربة خاصة لنأخذك إلى مكة بعد العشاء مباشرة » ونصحني أن آكل بشهية لأن طقوس الحج تتطلب جهداً كبيراً .

فاق الأمر حد الدهشة حينها.

رافقني شابان عربيان إلى مكة وقد كانت رحلة سهلة لأن الطريق كانت معبدة ومضاءة وسريعة . في الطريق مررنا ببعض نقاط الحراسة ومن نظرة إلى عربتنا ومع إشارة من السائق لم يوقفنا أي حارس بل لم نضطر إلى الإبطاء في السير حتى . شعرت بالأهمية والنشوة وبالتواضع والامتنان وكل ذلك في لحظة واحدة . عند وصولنا إلى مكة بدت قديمة قدم الدهر نفسه . أبطأت عربتنا في شوارع متعرجة على جوانبها حوانيت والشوارع ملأى بالحافلات والعربات والشاحنات وعشرات الألوف من الحجاج من كل بقاع الأرض .

وقفت العربة لفترة وجيزة في مكان كان ينتظرني فيه مطوف يرتدي رداءً أبيض فضفاضاً طويلاً (جلباب) مع غطاء الرأس مثل ما رأيت في المطار . كان عربيًّا قصيراً داكن البشرة يدعى محمد ولم يكن يعرف كلمة من الإنجليزية . أوقفنا العربة بعد ذلك قريباً من المسجد الكبير ثم توضأنا ودخلنا فوجدنا المكان مزدحماً بالحجاج وكأنهم متراصون فوق بعض وفي كل مكان : قعود ، رقود ، نيام ، يصلون قياماً ، أو يتمشون .

تعجز الكلمات عن وصف المسجد الجديد الذي كان بُني حول الكعبة وقد فرحت لمعرفتي أن ذلك واحد من عدة مشاريع معمارية تتم تحت إشراف دكتور عزام الصغير ، مضيفي . سيفوق مبنى المسجد الكبير في مكة عند انتهائه جمال تاج محل المعماري .

تبعت المطوف حاملاً نعلي ثم رأيت الكعبة ، مبنى أسود حجري ضخم في منتصف الجامع الكبير . كان يطوف بها ألوف من الحجاج من كل جنس ولون وعنصر وحجم وطول . كنت أعرف الدعاء الذي علىَّ أن أقوله عند رؤية الكعبة لأول مرة وهو كما يلي مترجماً : « يا رب أنت السلام ومنك السلام فحينًا يا رب السلام » على المسلم عند دخول المسجد أن يحاول تقبيل الكعبة فإذا لم يستطع الاقتراب منها بسبب الازدحام ، يكفي أن يلمسها وإذا لم يتمكن من ذلك عليه أن يرفع يديه ملوحاً ومنادياً « تكبير» (الله أكبر). لم أتمكن من الاقتراب ولذا كان التكبير .

كان شعوري مخدراً وأنا في بيت الله . قادني المطوف وسط جماهير المصلين

والمنادين وطفنا حول البيت سبع مرات . كان من بينهم مقوسو الظهر الذين عركتهم السنين وحجاج مقعدون يحملهم آخرون . كان منظراً يحفر نفسه في الذهن وكل الوجوه مشرقة بالإيمان . في المرة السابعة صليت ركعتين وخشعت ملامساً الأرض برأسي . في الركعة الأولى قرأت « قل هو الله أحد . الله الصمد ... » وفي الركعة الثانية قرأت « قل يا أيها الكافرون .. لا أعبد ما تعبدون .... ».

في أثناء ركوعي كان المطوف يبعد الناس عني .

بعد ذلك شربنا أنا والمطوف من ماء بئر زمزم ثم هرولنا بين جبلين هما الصفا والمروة اللذين هرولت بينهما هاجر بحثاً عن الماء لابنها إسماعيل .

زرت المجسد الكبير ثلاث مرات وطفت حول الكعبة وفي صباح اليوم التالي تحركنا بعد الشروق قاصدين جبل عرفات . ألوف مؤلفة منا تنادي في صوت واحد : «لبيك! لبيك !» « والله أكبر » يحيط بمكة جبال وصخور خام وكأنما عملت من انفجار وهي خالية من أي نبات . وصلنا عند الظهر ثم صلينا ودعونا وناجينا من الظهر حتى الغروب وهنالك صلينا العصر والمغرب صلاة خاصة .

أخيراً رفعنا أيدينا بالدعاء والشكر لله : « لا إله إلا الله . لا شريك له . له الملك والحمد . الخير منه وهو على كل شيء قدير. »

انتهى الإحرام ورمينا الشيطان بالجمرات . البعض حلق رأسه وذقنه ولكني قررت أن أترك ذقني . تساءلت عما ستقوله بتي وبناتنا الصغيرات حينما يروني بلحية عندما أعود إلى نيويورك التي بدت وكأنها على بعد مليون ميل . لم أر صحيفة منذ غادرت نيويورك ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عما يحدث هنالك . اكتشفوا وجود ناد زنجي للسلاح في هارلم عمره إثنتي عشرة سنة ، اكتشفته الشرطة وبدأوا يشيعون أنني وراء تلك المجموعة كما أن جماعة الإيْجا محمد رفعت قضية ضدي مطالبة بإخلاء المنزل الذي أسكن فيه مع عائلتي في لونج آيلاند .

كذلك أرسلت كبرى وكالات الأخبار وشبكات التلفاز مندوبيها للبحث عني في القاهرة لسؤالي عن الضجة التي أتهمت بإثارتها بينما أنا لا أعلم عنها شيئاً . ما أعرفه لا يتعدى ما تركته في أمريكا وكيف أنه على نقيض مما وجدت في العالم الإسلامي . كنا نحن قرابة العشرين حاجًّا نجلس في خيمة ضخمة على جبل عرفات وبصفتي مسلماً من أمريكا فقد كنت محط الانتباه . سألوني ما هو أكثر شيء أثار انتباهي في الحج ؟ كان أحدهم يترجم للآخرين وكانت إجابتي غير متوقعة ولكنها أكدت على ما أشعر به .

قلت : « التآخي . » أن يحضر الناس من كل بقاع العالم ليصبحوا مجموعة

واحدة . ذلك يؤكد لي قوة الإله الواحد . ربما لم يكن الوقت ملائماً ولكنني اغتنمت الفرصة لأعطيهم محاضرة سريعة عن العنصرية في أمريكا وشرورها .

كان واضحاً لي أثر قولي عليهم . كانوا على علم بأن وضع الرجل الأسود سيئ في أمريكا ولكنهم لم يكونوا يعلمون أنه بمثل ذلك السوء وأنه غير إنساني وخصي نفسي . صُدم أولئك المستمعون وبصفتهم مسلمين كان لديهم شعور بالتعاطف مع المظلومين وإيمان شديد بالعدل والمساواة . وفي كل ما قلته لهم طيلة الحديث كانوا يعون المقاييس التي أقيس بها الأشياء وأنه بالنسبة لي أكبر الشرور القابلة للانفجار هي العنصرية ، عدم مقدرة مخلوقات الله أن تعيش كأمة واحدة ، خاصة في العالم الغربي .

فكرت بعد ذلك بزمن في الخطاب الذي كتبته بعد ذلك وكيف أن أفكاره كانت تختمر في ذهني منذ زمن .

العمى عن الألوان في عالم المسلمين الديني والعمى عن الألوان في عالم المسلمين الاجتماعي ، كلا هذين كانا كل يوم يؤثران ويغيران من طريقة تفكيري السابقة.

أول خطاب كتبته كان بالطبع لزوجي بتي والتي لم يراودني أي شك في أنها بعد صدمة أولية ستنضم إليَّ وإلى طريقة تفكيري الجديدة وعندي ألف دليل أن ثقتها بي تامة . كنت متأكداً أنها سترى ما أرى وأنني في أرض محمد وإبراهيم هداني الله نوراً جديداً ورؤيا متفتحة نحو ديانة الإسلام وإلى تفهم أحسن لمشاكل أمريكا العنصرية . بعد ذلك الخطاب لزوجتي كتبت خطاباً مماثلاً لأختي إللا وأنا أعلم موقف إللا فقد كانت هي نفسها تدخر من مالها لتأدية فريضة الحج .

كتبت خطاباً لدكتور شواربي الذي مكنني تصديقه في إخلاصي من الحصول على تأشيرة للحج .

قضيت الليل وأنا أكتب خطابات مماثلة للآخرين القريبين مني وفيما بينهم أبن إلايجا محمد ، والاس محمد الذي عبر لي عن اقتناعه بأن خلاص أمة الإسلام (الأمريكية) لن يكون الا من خلال تفهم أحسن وتقبل أكثر للإسلام الأصيل .

كتبت أيضاً إلى مساعديني المخلصين في جماعتي الجديدة ، مؤسسة المسجد الإسلامي في هارلم مع ملحوظة ترجوهم أن يعيدوا كتابة خطابي ويوزعوه على الصحف . كنت أدرك أن كثيرين في أمريكا سيصابون بالذهول عند نشر خطابي ، أقارب وأصدقاء وأعداء . كذلك ستندهش ملايين أخرى لا أعرفها من الذين رأوا فيَّ طول الاثني عشر عاماً الماضية صورة داعية الحقد .

أنا نفسي ذهلت لهذا التغيير ولكن لي في حياتي أكثر من سابقة . حياتي ليست إلا سلسلة من التغيرات .

ها أنا أكتب ... من القلب :

لم أر في حياتي كرماً بمثل هذا الصدق وروحاً من الإخاء الحقيقي تغمر كل شيء مثل الذي تمارسه جميع الأجناس والألوان هنا في هذه الأرض المقدسة ، دار إبراهيم ومحمد وكل الرسل وحملة الكتاب .

طوال الأسبوع الماضي كنت عاجزاً عن النطق ومفتوناً بالسماحة التي أراها في الناس من جميع الألوان حولي .

لقد حباني الله بزيارة مدينة مكة المكرمة وطفت دائرياً سبع مرات حول الكعبة يقودني مطوف صغير يدعى محمد . شربت من ماء بئر زمزم وهرولت سبع مرات بين جبلي الصفا والمروة . لقد صليت فوق مدينة منى القديمة وصليت في جبل عرفات .

كان هنالك عشرات الألوف من الحجاج من كل أنحاء العالم ، من كل الأجناس والألوان . من الشقر ذوي العيون الزرقاء إلى الأفريقيين السود . ولكننا كنا جميعاً نمارس نفس العبادات تربطنا روح من الوحدة والإخاء كنت أظن من تجربتي في أمريكا ألا وجود لها بين البيض والسود إطلاقاً .

أمريكا في حاجة لأن تعرف الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي أزال المشكلة العنصرية من المجتمع . في كل رحلاتي في العالم الإسلامي قابلت وحادثت بل تناولت الطعام مع أناس يعتبرون في مصاف البيض في أمريكا – ولكن هنا أزيح حاجز اللون من عقولهم بفضل الإسلام . لم أر في حياتي تآخ صادق وحقيقي مثل الذي رأيت المسلمين يعيشونه معاً من غير اعتبار لألوانهم .

قد تصدمكم هذه الكلمات وهي آتية مني لكن ما شاهدته في الحج وما لمسته وعايشته أجبرني أن أعيد ترتيب أفكاري وأن أتخلص من بعض قناعاتي السابقة . لم يكن ذلك صعباً عليَّ فبالرغم من معتقداتي السابقة كنت دائماً شخصاً يواجه ويقبل حقائق الحياة كما تظهرها لي التجارب . لقد كان عقلي دائماً متفتحاً وذلك شيء ضروري للمرونة التي يجب أن تصحب ، يداً بيد ، أي نوع من أشكال البحث عن الحقيقة .

في الأحد عشرة يوماً الماضية وهنا في العالم الإسلامي ، أكلت من طبق واحد وشربت من نفس الكوب واضطجعت على نفس السرير (أي نفس الحصيرة) وكلنا نصلي لله – مع عدد من المسلمين لبعضهم عيون أكثرهن زرقة وشعر أكثر اشقراراً وبشرة أكثر بياضاً مما رأيت . وفي قول وأفعال وسلوك هؤلاء المسلمين البيض شعرت بنفس العاطفة التي وجدتها عند مسلمين أفريقيين سود من نيجيريا وغانا والسودان .

كنا شخصاً واحداً (أخوة) لأن إيماننا أزال البياض من عقولهم ومن سلوكهم ومن نظرتهم .

أخلص من ذلك إلى أنه ربما إذا قبلت أمريكا البيضاء وحدة الخالق فلربما قبلت أيضاً وحدة الإنسان حقيقة . ولأنتهوا عن النظر إلى كل شيء وقياس كل شيء وتعطيل وإيذاء الآخرين بسبب الفارق اللوني .

ومع العنصرية المنتشرة في أمريكا كوباء لا علاج له ، ربما كان على قلب أمريكا المسيحي الأبيض أن يجرب علاجاً أثبتت الأيام نجاعه ضد هذه المشكلة المدمرة ولربما تم إنقاذ أمريكا من الكارثة المحيقة بها .

نفس الكارثة التي جلبتها العنصرية على ألمانيا حتى حطمت الألمان أنفسهم .

كل ساعة هنا في الأراضي المقدسة تتيح لي نظرة أعمق فيما يحدث في أمريكا بين البيض والسود . لا يمكن لوم الزنجي الأمريكي لعدائه للبيض فهو إنما يستجيب لما حوله ، ردة فعل لأربعمائة سنة من العنصرية المتعمدة من جانب البيض ، ولكن وبينما تقود العنصرية أمريكا نحو الانتحار ، فإنني أؤمن من تجربتي معهم ومما شاهدته من الجيل الجديد في الجامعات والمعاهد العليا ، هذا الجيل سيرى الإنذار على الجدران وكثير منهم سيتجه وجهة روحية وذلك هو الطريق الوحيد الباقي أمام أمريكا لإنقاذ نفسها من براثن العنصرية ومن المصير المحتوم الذي تقود إليه .

لم يحدث أبداً أن مُنحت مثل ذلك الشرف والتكريم . لم يحدث إطلاقاً من قبل أن شعرت بضعفي وقلة حيلتي . ومن سيصدق التكريم الذي أهالوه على زنجي أمريكي ؟ قبل بضعة ليال فقط ، رجل يعد أبيض بمقاييس أمريكا وفي أمريكا ، دبلوماسي من الأمم المتحدة ، سفير وجليس للملوك ، ترك لي جناحه وسريره . وبواسطة هذا الرجل ، أُبلغ الملك فيصل ، صاحب الجلالة وحاكم المملكة بوجودي وفي صباح اليوم التالي رأساً أبلغني ابن الملك فيصل شخصياً أنني بمشيئة الله وبأمر من أبيه المفدى ، سأكون ضيفاً على المملكة .

« نائب مدير المراسيم أخذني بنفسه أمام المحكمة وسماحة الشيخ محمد حركون نفسه وافق على زيارتي لمكة وأعطاني كتابين عن الإسلام عليهما خاتمه وتوقيعه وأخبرني أنه يدعو الله أن أكون داعية ناجحاً للإسلام في أمريكا . سيارة مع سائق ودليل وضعا تحت تصرفي مما مكنني من التجوال في الأراضي المقدسة بحرية تكاد تكون تامة . الدولة تهيئ لي جناحاً مكيف الهواء وأناساً يقومون على خدمتي في كل مكان . لم يكن يدر بخلدي أبداً بل لم أحلم إطلاقاً بأنني سأتلقى مثل هذا التكريم والحفاوة – تكريم وحفاوة لا يلقاها إلا الملوك في أمريكا».

المخلص

الحاج مالك الشباز

« مالكوم إكس »